هنا يُقبل المؤمن على تحمُّل مشاقِّ الإيمان ؛ لأنه يثق فى أن الحق سبحانه لا يُضيع أجْر مؤمنٍ ؛ ولا بُدَّ لموكب الإيمان أنْ ينتصر ؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن ، ويشكر على النِّعَم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ(١) سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ(٢) نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ⑥ ﴾

وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بنموذج من أيام معاناتهم من جبروت فرعون ، وكيف خلَّصهم سبحانه من هذا الجبروت ، وكان فرعون يُسلِّط عليهم أقسى ألوان العذاب ، ف «سام» الشيء أى : طلبه ؛ و « سام سوء العذاب » أى : طلب العذاب السيء .

وقد ذَبَّح فرعون أبناءهم الذكور ، ولم يُذبِّح الإناث لتصبح النساء بلا عائل ويستبيحهُنَّ ، وفى هذا نكَاية شديدة .

---

(١) سامه الأمر يسومه سوماً : كلَّفه إياه على غير إرادته . قال الزجاج : أكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله . قال تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ۝٤٩ ﴾ [البقرة] . أى : أنهم يقتلون الذكور فقط، ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/ ١٨٣] .

ووقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ، وقالوا : لقد تعرض القرآن من قبل لهذه الآية فى سورة البقرة ؛ حين قال :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

فهل هذه الآية فى سورة إبراهيم هى البليغة ، أم الآية التى فى سورة البقرة ؛ خصوصاً وأن الفرق بينهما هو مجيء « الواو » كحرف عطف على ذبح الأبناء باستباحة النساء ؟

وأضاف هذا المستشرق : ولسوف أتنازل عن النظر إلى ما جاء فى سورة الأعراف حين قال القرآن :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف]

وبطبيعة الحال ، فهذا المستشرق لم يأخذ فَهْم القرآن عن ملَكة عربية ، ذلك أنه لو كان قد امتلك هذه القدرة على الفَهْم ؛ لَعرفَ أنّ الكلام لم يصدر فى الآيات عن مصدر واحد ، بل صدر عن مصدرين .

ففى آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ، ولذلك قال :

﴿ نَجَّيْنَاكُم.. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

ولكن المصدر المتكلم فى سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام ؛ لم يَقُلْ أنه هو الذى أنجاهم بل يُعدِّد النعم التى مَنَّ الله بها

عليهم ؛ ويمتنّ بها عليهم . وعلّة ذلك أن العظيم حين يمتنُّ على غيره لا يمتنُّ إلا بالعظائم ، أما دون العظيم فقد يمتنُّ بما دون ذلك[1] .

وأسوق هذا المَثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن التشبيه ، وأقول : هَبْ أن إنساناً غنياً له أخ رقيق الحال ، وقد يُمد الغنيُّ أخاه الفقير بأشياء كثيرة ، وقد يعتني بأولاده ؛ ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة . ويأتي ابن الفقير ليقول لابن الغني : لماذا لا تسألون عنا ؟ فيقول ابن الغني : ألم يَأتِ أبي لك بهذا القلم وتلك البذلة ، بالإضافة إلى الشقة التي تسكنون فيها ؟

ولكن العَمَّ الغنيَّ يكتفي بأنْ يقول : أنا أسأل عنكم ، بدليل أنِّي أحضرت لكم الشقة التي تسكنون فيها . إذن : فالكبير حقاً هو الذي يذكر الأمور الكبيرة ، أما الأقل فهو من يُعدِّد الأشياء .

وهنا يَصفُ الحق سبحانه سوْم العذاب وذَبْح الأبناء بالبلاء العظيم في قوله تعالى :

﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى مظهرية الخير التي مَنَّ الله بها عليهم ، وهي الإنجاء من ذبح الأبناء واستباحة النساء ؛ وكان ذلك نوعاً من مظهرية الشر . وهذا ابتلاء صعب .

---

(١) قال أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » ص ٢٧ : « فإن قلت : ما الحكمة في ترك العاطف هنا ، وذكره في سورة إبراهيم ؟ قلت: لأن ما هنا من كلام الله تعالى ، فوقع تفسيراً لما قبله ، وما هناك من كلام موسى وكان مأموراً بتعداد المحن في قوله : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [إبراهيم] . فعدَّد المحن عليهم ، فناسب ذكر العاطف » .

وسبق أنْ أوضحنا أنَّ البلاء يكون بالخير أو بالشر ، فقد قال سبحانه :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء]

فلا الخيرَ دليلُ تكريم ، ولا الشرُّ دليلُ إهانة ؛ فهو القائل :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فالابتلاء فى الأصل هو الامتحان ؛ إما أنْ تنجحَ فيه أو ترسبَ ؛ ولذلك فهو غَيْر مذموم إلا بالنتيجة التى يؤُول إليها .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ(١) إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾

ونلحظ أن الآية تبدأ بكلمة « تأذّن » وكل المادة الألف والذال والنون مأخوذة من الأذن . والأذن آلة السماع ، والأذان إعلام ، وآذنهم أى أعلمهم .

وتأذن أى : اعلم بتوكيد . وهكذا يكون معنى الآية : انى أُعلمكم بتوكيد من ربكم أنكم إنْ شكرتم ليزيدنكم من نعمه وعطائه ؛ لأن

(١) الكفر هنا بمعنى جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ورجل كافر : جاحد لأنعم الله . وتقول : كفر نعمة الله وبنعمة الله كفراً وكفراناً وكفوراً . [لسان العرب ـ مادة : كفر] .

الشكر دليلُ ارتباطٍ بالواهب ؛ وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما أوتيتم ، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب .

والحق سبحانه هو مَنْ قال :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ولو كان الإنسان مربوطاً بالحق سبحانه ؛ لما فصل الحقَّ عن نعمه ؛ ولظل ذاكراً للحق الذى وهبه النِّعمَ .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تشغلك النعمة عن المُنعِم ؛ لأن النعمة موهوبة لك ؛ وليستْ ذاتية فيك .

وتأتى المقابلة من بعد ذلك مباشرة ؛ فيقول :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهنا يثور سؤال : هل الذى لا يشكر نعم الله يكون كافراً ؟

وهنا علينا أن نعلم أن هناك فارقاً بين الكفر والكفران ، ولكن لفظ الكفر جاء هنا ليغلظ من معنى عدم الشكر ، ولم يأت بكلمة كُفْران وجاء بقوله :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

والمثل فى ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

ومَنْ لم يحج فهو عَاصٍ ؛ وكأن الله يريد أن يُصعِّب عدم القيام

بالحج . أو : أن الآية تريد حُكْمين : الحكم الأول : الإيمان بفرضية الحج ؛ والثانى : القيام بالحج فعلاً .

ذلك أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

فَمنْ يؤمن بأن هذا حُكْم صحيح واجب ويؤمن به ولكنه لا يُنفِّذه ؛ قد يدخل فى المعصية ؛ لأنه يستطيع أن يحُجَّ ولم يفعل . أما مَنْ يكفر بالحج نفسه وينكر القضية كلها ؛ فهو كافر والعياذ بالله.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا جاء الكفر مقابل الشكر ، ولابُدَّ من عذابٍ للكفر ؛ وعذابُ الله لابُدَّ أن يكون شديداً ؛ لأن العذاب يتناسب بقدرة المعذب ، ولا أقدرَ من الله ، ونعوذ به سبحانه من عذابه ، فهو أمر لا يُطَاق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

وقد قال موسى ذلك كى لا يظنّ ظَانٌّ من قومه أن الله فى حاجة إلى شكرهم ؛ وأنه سيعاقبهم بالعذاب إنْ كفروا بشكره ؛ فأراد أنْ ينسخَ هذا الظنَّ من أذهان مَنْ يسمعونه .

وأوضح لهم أن الحق سبحانه لن يزيده إيمانكم شيئاً ؛ ولن يضيف هذا الإيمانُ منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لمُلْكه شيئاً ؛ لأن مُلْك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشيء عن كمال موجود.

ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾

وهذه الآية الكريمة أعطتْنا تفسيراً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا[1] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (٧٨) ﴾ [غافر]

ونعلم أن الحق سبحانه قد أوحى لموسى ـ عليه السلام ـ أن

(١) خلا : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المواضي . [لسان العرب ـ مادة : خلا] .

يُبلغ قومه بقصص بعض من الأنبياء السابقين عليه . وهذا واضح فى قوله الحق :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ .. (٩) ﴾
[إبراهيم]

ويقول سبحانه عن القوم الذين جاءوا من بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٩) ﴾
[إبراهيم]

أى : أن الرسل قد حملوا منهج الله ، وكذلك المعجزات الدالة على صدقهم لِمَنْ جاءوا من بعد ذلك . والبينات إما أن تكون المعجزات الدالة على صدقهم ؛ أو : هى الآيات المُشْتملة على الأحكام الواضحة التى تُنظِّم حركة حياتهم لِتُسْعدهم .

ولكن هل قَبِلَتْ تلك الأقوامُ تلك البينات ؟

لا ، لأن الحق سبحانه يقول عنهم :

﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. (٩) ﴾
[إبراهيم]

وهكذا نرى أن الكافرين هم مَنْ وضعوا أيديهم على أفواههم ، وإما أنهم عَضُّوا على الأيدى بالنواجذ لأنهم لم يُطيقوا تطبيق منهج الله ؛ ولم يستطيعوا التحكُّم فى أنفسهم .

أو : أنهم رَدُّوا أيديهم إلى أفواههم بمعنى أن قالوا للرسل : « هس » ، أصمتوا ولا تتكلموا بما جِئْتم به من بلاغ . أو : أن بعضهم قال للرسل « لا فائدة من كلامكم فى هؤلاء » .

والثراء في القرآن يتحمل كل هذه المعاني ؛ والآية تتسق فيها كل تلك المعاني ؛ فالعبارة الواحدة في القرآن تكون شاملة لخيرات تناسب كمالات الله ، وستظل كمالات القرآن موجودة يظهر بعضها لنا ؛ وقد لا ندرك البعض الآخر إلى أن يُعلمنا بها الله يوم القيامة .

ويأتي قولهم :

﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. ⁽٩⁾﴾ [إبراهيم]

ليكشف لنا غباءهم ، فَهُمْ يعترفون بأن هؤلاء رسل من السماء ، وفي نفس الوقت يُنكرون المنهج ، ويُعلنون هذا الإنكار ، يكشف لنا ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ⁽٩⁾﴾ [إبراهيم]

أي : أنهم أعلنوا رأيهم في المنهج ، وقالوا : إنهم مُحيَّرون ويشكُّون في هذا المنهج .

ويأتي القرآن بردِّ الرسل في قول الحق سبحانه :

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ⁽١٠⁾﴾

---

(١) أصل الفَطْر : الشق . وفطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم وبدأهم . قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي أنا ابتدأت حفرها . [لسان العرب ـ مادة : فطر] .

وقـوله : ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ.. (١٠)﴾ [إبراهيم] هو لونٌ من الخطاب الذى لا يتـرك لِمَنْ توجـه إليه الـكلام أنْ يُجيب إلا كـمـا تريد أنت . وأنت لا تفـعل ذلك إلا إذا كُنْـتَ واثقـاً من أن مَنْ تُوجِّـه إليـه الكلام سيجيب ـ إنِ استحضرَ الحق فى ذهنه ـ كما تريد أنت .

ولذلك لم يَأْتِ الخطاب هنا بقوله « لا شك فى الله » وبذلك يكون الكلام خـبرياً ، وقـد يقـول واحد : إن هذا كـلام كـاذب ، ولكن على الرغم من أن المستـمعين من الكفار ، إلاَّ أنه يأتى بالقـضية فى شكل تسـاؤل يسـتأمـنهم على أنهم سـوف يُديرون الكلام فى رؤوسـهم ، وسيعثـرون على الإجابة التى لا يمكن أنْ ينكرونها ؛ وهى « ليس فى الله شك » .

وهكذا نجد أن القائل قد سكتَ عن إعلانهم الكفرَ أولاً ؛ وجاء لهم بالتـساؤل الذى سيـجيـبون عليـه « ليس فى الله شك » ، ويأتى لهم بالدليل الذى لا يحتمل أىَّ شكٍّ ، وهو قوله الحق :

﴿فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (١٠)﴾ [إبراهيم]

والفاطر هو الذى خـلق خَلْقاً على غيـر مثال سـابق ، مثلهـا مثل قوله الحق :

﴿بَدِيعُ[١] السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١١٧)﴾ [البقرة]

فـلا أحـدَ قـادرٌ على أن يخلقَ مـثل السـماوات والأرض ؛ وهى مـخلوقة على غـيـر مثـال سابق . وسـبـحانه هو مَنْ شـاء أن يكون

(١) بدعه يبدعه : أنشـاه على غير مـثال سابق . وبديع الـسماوات والأرض . أى : مـبدعهـما ومنشئهما على غير مثال سابق . [القاموس القويم ١/٥٧].

الإنسان سيداً لكل الكائنات المخلوقة ، وأن تكون تلك الكائنات مُسخَّرة لخدمته .

وقد يتخيَّل الإنسان أن خَلْقه أكبر من خَلْق السماوات والأرض ؛ لذلك يُنبِّهه الحق سبحانه :

﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر]

ولو نظرتَ إلى الشمس وسألتَ نفسك : كم من الأجيال قد استمتعوا بدفْئها واستفادوا منها ؟ فمن المؤكَّد أنك لن تعرف عدد الأجيال ؛ لأن الشمس مخلوقة من قَبْل خَلْق البشر ، وكل إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عددَ سنوات حياته ، ثم يذهب إلى الموت .

ونجد المفسر الجليل الفخر الرازى[1] يضرب المَثل الذى لا يمكن أنْ يُنكِره أحد ، ويدلُّ على الفطرة فى الإيمان ، ويُوضِّح أن الحق سبحانه لم يُمهل الإنسان إلى أنْ ينضجَ عقله ليشعر بضرورة الإيمان ، ويضرب المثل بطفل صغير تسلَّل ، وضرب شقيقه ؛ هنا لابُدَّ أن يلتفتَ الشقيق ليكتشف مَن الذى ضربه ؛ لأن الإنسان من البداية يعلم أنْ لا شيءَ يحدث إلا وله فاعل .

وهَبْ أن طفلاً جاء ليجد شقيقه جالساً على كرسى ، وهو يريد

(١) هو : محمد بن عمر بن الحسن أبو عبدالله ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان . يقال له « ابن خطيب الرى » رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان . وتوفى فى هراة عام ٦٠٦ هـ . (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

أن يجلس على نفس الكرسى ؛ هنا سيقوم الطفل بشدِّ وجَذْب أخيه من على الكرسى ليجلس هو ، وكأنه اكتشف بالفطرة أن اثنين لا يمكن أن يستوعبهما حَيِّز واحد .

وهكذا يتوصل الإنسان بالفطرة إلى معرفة أن هناك خالقاً أوحد . وهكذا نجد قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (١٠) ﴾ [إبراهيم]

هو الآية الكونية الواسعة .

ويأتى من بعد ذلك بالقول :

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ.. (١٠) ﴾ [إبراهيم]

وهذا القول يدل على الرحمة والحكمة والقدرة والحنان ؛ وهو هنا يقول :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ (١٠) ﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ : يغفر لكم ذنوبكم ؛ ذلك أنه يخاطب الكفار ؛ بينما يقول سبحانه حين يخاطب المؤمنين :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.. (١٢) ﴾ [الصف]

وهكذا لا يساوى الحقُّ سبحانه فى خطابه بين المؤمنين والكافرين .

أو : أن المقصود من قوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ .. ⑩ ﴾ [إبراهيم]

هو غفران الكبائر ؛ ذلك أن صغائر الذنوب إنما يغفرها أداء الفرائض والعبادات ؛ فنحن نعلم أن الرسول ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »[1] .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ⑩ ﴾ [إبراهيم]

وكلنا نعرف أن الأجلَ هو الزمن المضروب والمُقرر للحدث . وإن شاء الحق سبحانه الإبادة فنجد ما يدل عليه قوله الحق :

﴿ فَخَسَفْنَا[2] بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. ⑧١ ﴾ [القصص]

كما فعل مع قارون .

أو : أن قوله : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ⑩ ﴾ [إبراهيم] مقصود به يوم القيامة .

ولكن الكفار أهل لَدَد[3] وعناد ، لذلك نجد قولهم :

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٣) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٨٤) وابن ماجة في سننه (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتَغُور . [القاموس القويم : ١/ ١٩٤] .

(٣) اللدد : الخصومة الشديدة . الألد : الشديد الخصومة الجدل. [لسان العرب ـ مادة : لدد].

﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يعلن أهل الكفر لرسلهم أنهم يُفضّلون أن يكونوا أهل تقليد للآباء ، ولو أنهم فكّروا لَعلموا أن التقليد لو شاع في المجتمعات لَما ارتقى أحدٌ عن آبائه وأجداده ، فالعالم يتطور من تمرُّد جيل على جيل سابق ، فلماذا يُصرّ هؤلاء الكافرون على أن يحتفظوا بتقليد الآباء والأجداد ؟

وإذا كان الأبناء يتطورون في كل شيء ، فلماذا يحتفظ هؤلاء الكفار بتقليد الآباء في العقائد ؟

ولا يكتفي أهل الكُفْر بذلك ، بل يطلبون أن يأتيَ لهم الرسل بسلطان مبين ، والسلطان يُطلق مرَّة على القهر على الفعل ، ويكون الفاعل المقهور كارهاً للفعل .

ومرّة يُطلق على الحجة التي تُقنع بالفعل ، ويكون الفاعل مُحباً لما يَقْدُم عليه ، والدين لا يمكن أن ينتشر قهراً ؛ بل لابُدَّ أن يُقبل الإنسان على الدين بقلبه ، وذلك لا يأتي قهراً .

لذلك نجد القول الحق :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]

وما دام الرُّشْد قد ظهر فالإكراه لا مجالَ له ؛ لأن الذي يُكْره على شيء لا يمكن له أن يعتنق ما يُكره عليه .

وإذا ما دخل الإنسان الدين فعليه أن يلتزمَ بما يُكلّف به الدين ؛

ولذلك فالإنسان لا يمكن أن يدخل إلى الدين مُكْرهاً ، بل ، لا بُدَّ أن يدخله على بصيرة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بما قاله الرسل رداً على قَوْل أهل الكفر :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ(١) عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم : نحن بشر مثلكم ، والسلطان الذى نملكه هو المعجزة التى اختصَّ بها الحق سبحانه كُلَّ رسول ، والحق سبحانه هو الذى يتفضَّل على عباده ؛ فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم ؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة ؛ ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله .

وكل رسول إنما يفعل ذلك ويُقبل عليه بكل الثقة فى أن الحق سبحانه لن يخذله وسينصره ؛ فسبحانه هو القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

ويخبرنا سبحانه بطمأنة الرسول ومَنْ معه لحظةَ أن يزلزلهم

(١) يمن : ينعم ويحسن . وفى أسماء الله تعالى : الحنان المنان ، أى : الذى ينعم غير فاخر بالإنعام . وقال ابن الأثير : هو المنعم المعطى من المنّ فى كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه . [لسان العرب ـ مادة : منن] .

جِسَام الأحداث ؛ وتبلغ قلوبهم الحناجر ، ويتساءلون :

﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

فتأتى أخبار نَصْر الحق سبحانه لرسله السابقين لطمأنة المؤمنين ، ونجد الحق سبحانه هنا يقول :

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾ [إبراهيم]

هكذا أعلن كل رسول لِمَنْ آمن به من قومه ، فعلَى الله وحده يتوكَّل المؤمنون ، ويُفوِّضون كل أمورهم إليه وحده ؛ صَبْراً على معاندة الكافرين ، وثقةً فى أنه سبحانه ينصر مَنْ أبلغوا رسالته ومنهجه ، وينصر معهم مَنْ آمنوا بالمنهج والرسالة .

وينقل لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الرسل لأقوامهم :

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه قد وصف المُتوكِّلين فى نهاية الآية السابقة بأنهم المؤمنون ؛ وهنا يَصِفُهم فى نهاية هذه الآية بأنهم المتوكِّلون ؛ لأن صفة الإيمان تدخل فى صفة التوكل ضِمْناً .

ونعلم أن هناك فارقاً بين التوكل والتواكل ؛ فالتوكل يعنى أن تستنفد أسباب الله المَمْدودة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ؛ بعد أن تُؤدِّى الجوارحُ ما عليها من عمل وأَخْذ بالأسباب ؛ فالجوارح تعمل والقلوب هى التى تتوكل .

ويأتى لنا الحق سبحانه ببقية الحوار بين الذين كفروا من أهل الأقوام السابقة وبين رسلهم ، فيقول :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا(١) فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وهكذا نرى أن فاشية الخير حين فَشَتْ فى الناس ؛ يغضب منها المستفيدون من الفساد والذين يعيشون عليه ؛ ويتجه تفكير المفسدين إلى ضرورة إخراج خمائر الخير من الأرض التى يعيش المفسدون على الاستفادة من أهلها .

وإنْ عزَّتْ الأرض على خمائر الخير ، فعليهم أن يعلنوا عودتهم إلى ديانة الكافرين . ولا يقال : عُدْت إلى الشىء إلا إذا كنتُ فى الشىء ثم خرجتُ عنه وعُدْتُ إليه .

وهل كان الرسل الذين يُهدِّدهم أهل الكفر بالإخراج من البلاد ؛ يقبلون العودة إلى ديانة الكفر ؟

طبعاً لا ؛ ولذلك نفهم من قوله تعالى :

﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

بمعنى « أو لتصيرن فى ملتنا » .

ولم يقبل الرسل تلك المُساومة ؛ ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يُنزِل جنود التثبيت والطمأنينة والسكينة على قلوب رُسُله والمؤمنين ؛

(١) الملة : الشريعة والدين . والملة : الدين حقاً كان أو باطلاً . [القاموس القويم : ٢/٢٣٦].

فلا يتأثر الرسل ومَنْ معهم بمثل هذا الكلام .

وهذا ما يُعبِّر عنه قَوْل الحق سبحانه فى آخر الآية :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يأتى القانون السماوى بالعدل وهو إهلاك الظالمين ، وتلك قضية إيمانية باقية ودائمة أبداً .

ويكمل الحق سبحانه وعده لرسله ومَنْ معهم من المؤمنين :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾

وهنا يؤكد الحق سبحانه أن مَنْ يثبت على الإيمان ، ويخاف مَقَام الحق سبحانه ، ويخشى يوم العَرْض على الحق ويوم الحساب ؛ ولم ينكص[1] عن منهج دعوة الحق ؛ سيُورثه الحق سبحانه أرض مَنْ كفر بالله ؛ فتلك سنة الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧) ﴾

[الأحزاب]

ونعلم أن مَنْ يخاف الله ويخشاه ويؤمن أنه قائم على كُلِّ نفس ؛ فسبحانه يجزى مَنْ يعيش حياته فى ضَوْء الإيمان بأن يُورِثه أرضَ مَنْ كفر ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله :

---

(١) النكوص : الإحجام . ونكص على عقبيه : رجع عما كان عليه من الخير . والنكوص : الرجوع إلى وراء . [لسان العرب ـ مادة : نكص] .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. (١٣٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا(١) وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(٢) (١٥) ﴾

و« استفتح » تعنى طلب الفتح ، وهناك فتح ، واستفتح . وكلمة « فتح » تدل على أن شيئاً مُغْلقاً ينفتح ، ومرّة يكون المقصود بالكلمة أمراً حسياً ؛ وأحياناً يكون الأمر معنوياً ، ومرة ثالثة يكون الفتح بمعنى الفَصْل والحُكْم .

والمثل على الأمر الحسيّ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

ومرّة يكون الفَتْح معنوياً ؛ وبمعنى سابقة الخير والعلم ، كقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) استفتحوا : استنصروا . أى : أذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم . [تفسير القرطبى ٣٦٨٦/٥] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٦٨٧/٥) : « الجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفاً . وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر » .

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. ②﴾ [فاطر]

أما المَثل على الفَتْح بمعنى الفَصْل فى الأمر ، فالمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ⑧⑨﴾ [الأعراف]

وهكذا نجد للفتْح معانى متعددة ، وكلها تدور حول المغاليق وهى تُفَضّ ، ويُطلَق الفتح آخر الأمر على النصر ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ①⑤﴾ [إبراهيم]

وهم طلبوا الفتح بمعنى طلبوا النصر ، وكانت تلك خيبةً من الكفار ؛ فَهُمْ طلبوا الفتح أى النصر ؛ وهم قد فعلوا ذلك مظنّة أن عندهم ما ينصرهم .

وكيف ينصرهم الله وهم كافرون ؟

لذلك يُخيِّب الله ظنهم ويحكم عليهم بمصير كل مَنْ عاش جباراً فى الأرض ، متكبراً عن عبادة ربه .

ويقول سبحانه :

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم]

والجبار هو مَنْ يقهر الناس على ما يريده ؛ والمقصود هنا هم المُتكبِّرون عن عبادة الحق سبحانه وتعالى ، ويعاندون فى مسألة الإيمان به سبحانه .

وماذا ينتظرهم من بعد ذلك ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾

أى : من خلف الجبار المُتعنِّت بالكفر جهنمُ ، وما فيها من عذاب . وفى العامية نسمع مَنْ يتوعد آخر ويقول له « وراك .. وراك » ويعنى بذلك أنه سيُوقع به أذىً لم يأتِ أوانه بَعْد .

وكلمة « وراء » فى اللغة لها استخدامات متعددة ؛ فمرَّة تأتى بمعنى « بَعْد » والمثل فى قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود]

---

(١) أى : تعجبت من الضيوف الذين جاءوا بالبشرى . وقيل : كانت لا تحيض فحاضت . وفى اللغة : ضحكت المرأة أى حاضت . والراغب فى المفردات أنكر هذا التفسير وأرجع أن قوله تعالى : « ضحكت » معناه سُرَّتْ كثيراً . [القاموس القويم : ١/ ٣٩٠] .

أى : جاء يعقوب من بعد إسحق .

ومرّة تُطلق « وراء » بمعنى « غير » مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ.. ۝ ﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن جهنم ستأتى مستقبلاً ، أى : أنها أمامه، ولكنها تنتظره ؛ وتلاحقه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ ﴾ [إبراهيم]

والصديد هو الماء الرقيق الذى يخرج من الجُرْح ، وهو القَيْح الذى يسيل من أجساد أهل النار حين تُشْوى جلودهم .

ولنا أن نتصورَ حجم الألم حين يحتاج أحدهم أن يشرب ؛ فيُقدَّم له الصديد الناتج من حَرْق جلده وجُلُود أمثاله . والصديد أمر يُتأفَّفُ من رؤيته ؛ فما بَالُنَا وهو يشربه ، والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه متابعاً لِمَا ينتظر الواحد من هؤلاء حين يشرب الصديد :

﴿ يَتَجَرَّعُهُ(١) وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ(٢) وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

ويتجرعه أي : يأخذه جَرْعة جَرْعة ، ومن فرط مرارته لا تكون له سيولة تُستسَاغ ؛ فيكاد يقف في الحلْق ؛ والإنسان لا يأخذ الشيء جَرْعة جَرْعة إلا إذا كان لا يقدر على استمرار الجرعة ؛ ولكن هذا المشروب من الصديد لا يكاد يستسيغه مَنْ يتجرعه . ويقال : استساغ الشيء . أي : ابتلعه بسهولة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أي : لا يكاد يبلعه بسهولة فطعْمُه وشكله غير مقبولين .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أي : ينظر حوله فيجد الموت يحيط به من كل اتجاه ، لكنه لا يموت ، ويُفَاجأ بأن العذاب يحيط به من كل اتجاه مُصدِّقاً لقول الحق سبحانه :

---

(١) تجرعه : بلعه في تكلف وتكرُّه [القاموس القويم : ١/١٢٠] . وقال القرطبي في تفسيره (٣٦٨٩/٥) : « أي : يتحساه جُرعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته » .

(٢) ساغ الشراب في الحلق إذا كان سلساً سهلاً . [لسان العرب - مادة : سوغ] .

﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾ [إبراهيم]

هكذا يتعذب الجبار المتعنت فى أمر الإيمان . وإذا قسْنَا العذاب الغليظ بأهونِ عذاب يلقَاهُ إنسان من النار لوجدنا أنه عذابٌ فوق الاحتمال ؛ فها هو ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرجلٌ يُوضَع فى أخْمَص[1] قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه »[2] .

فمَا بالُنَا بالعذاب الغليظ ، وقانا الله وإياكم شرَّه ؟

ويقول سبحانه من بعد ذلك قضية كونية :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) ﴾

وقد يأتى فى أذهان البعض ما يُشوِّه عقائد الإيمان ، فيقول : كيف يدخل فلانٌ النار وهو مَنْ أهدى البشريةَ تلك المخترعات الهائلة التى غيَّرت مسارات الحضارة ، وأسعدتْ الناس ؟ كيف يُعذِّب الله هؤلاء الذين بذلوا الجهد ليطوروا من العلوم والفنون ، أيعذبهم لمجرد أنهم كفار ؟

(١) الأخمص : باطن القدم وما رقَّ من أسفلها وتجافى عن الأرض . [لسان العرب ـ مادة : خمص] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

وأقول : نعم ، يعذبهم الله على الرغم من أنه سبحانه لا يضيع عنده أجْرُ مَنْ أحسنَ عملاً ؛ وهو قادر على أنْ يَجزيهم فى الدنيا بما ينالونه من مجد وشهرة وثروة ؛ وهم قد عملوا من أجل ذلك . وانطبق عليه قوله : « عملتَ ليُقال وقد قيل »[1] وأخذوا أجورهم مما عَملوا لهم ؛ ذلك أنهم عملوا ولَم يكُنْ فى بالهم الله .

وهكذا يصور القرآن مسألة الجزاء ، فالواحد من هؤلاء الكفار إذا كان يَلْقى العذاب الغليظ على الكفر ؛ فالحق لا يغمطه[2] أجر ما فعل من خير ؛ فينال ذلك فى الدنيا ويستمتع بإطلاق اسمه على اختراعه أو اكتشافه .

ونعلم جميعاً قوله ﷺ : « مَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[3] أما فى الآخرة فالعذاب جزاؤه ؛ لأنه عاش كافراً بالله .

وهذه الأعمال التى صنعوها فى الدنيا ، وظنُّوا أنها أعمالٌ إنسانية وأعمالُ برٍّ تأتى يوم القيامة وهى رماد تهبُّ عليه الريح الشديدة فى يوم عاصف لتذره بعيداً :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى فى كتاب « الأحاديث القدسية » (١/١٣٥ - ١٥١) بتحقيقى .

(٢) غمط الحق : جحده . والغمط : كفران النعمة وسترها . [لسان العرب - مادة : غمط] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .